تأصيل البحث اللساني
في نظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

محمد كمال بلخوان
المدرسة العليا للأساتذة -مستغانم
kkamel5@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/12/15 تاريخ القبول: 2018/02/20

الملخّـص

امتـد البحـث اللسـاني عنـد البروفيسـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح إلى مختلـف المسـائل التـي أثارهـا البحـث في اللسـانيات العربيـة بـكل تجاذباتـه المعرفيـة والمنهجيـة، والمتأمـل في منجـزه اللسـاني يلفـي مشروعـا علميـا متكاملا، بـدأه بتأصيـل البحـث في علـوم اللغـة بالعـودة إلى الـتراث قـراءة واسـتيعابا وبعثـا والمنجـز اللسـاني الغـربي اطلاعـا وفهـما ونقـدا. فـكان الرجـوع إلى المصـادر التـي أسسـت للمعرفيـة اللغويـة وتنقيتهـا في ذات الوقـت مـما علـق بهـا خـلال مسـارها التطـوري مـن المفاهيـم التـي فرضتهـا الصراعـات المذهبيـة والتيـارات الفكريـة، وبعـث المصطلـح الـتراثي مـن منابتـه الأصيلـة جوهـرَ مـشروع التأصيـل عنـد الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح.

الكلمات المفاتيح:

تأصيل البحث - اللسانيات العربية - المصطلح اللساني.

Enracinement de la recherche linguistique dans la vision de Abderrahmane Hadj Salah

Résumé

La recherche en linguistique du Professeur Abderrahmane Hadj Salah s'est étendue aux différentes questions soulevées par la recherche en linguistique arabe et ce, dans toutes ses interactions cognitives et méthodologiques.

Le chercheur méditant dans sa réussite linguistique trouve un projet scientifique complet, dont le commencement a trait à l'origine de la recherche en sciences du langage, à partir de la lecture, la compréhension et la relance du patrimoine. C'est également le cas dés qu'il s'agit du retour à la production linguistique occidentale.

C'est en définitive une référence aux sources en relation avec la connaissance linguistique et avec tout ce qui a pu l'altérer durant son parcours évolutionniste comme concepts imposés par les conflits sectaires et les courants intellectuels. C'est ce qui a permis d'asseoir le concept d'héritage patrimonial inhérent au projet d'enracinement chez Abderrahmane Hadj Salah.

Mots clés:

Origine de la recherche - Linguistique arabe - Terme linguistique.

Rooting the linguistic reseach in the vision of Abderrahmane Hadj Salah

Abstract

Professeur Abderrahmane Hadj Salah's research in linguistics extended to the different issues raised by research in Arabic linguistics, in all its cognitive and methodological interactions.

The researcher meditating in his linguistic success finds a complete scientific project, the beginning of which relates to the origin of research in language sciences from the reading, the understanding and the revival of the heritage. This is also the case when it comes to the return to Western linguistic production.

It is ultimately a reference to sources in relation to linguistic knowledge and with all that could alter it during its evolutionary courses as concepts imposed by sectarian conflicts and intellectual currents. This is what helped to establish the heritage legacy concepts inherent in Abderrahmane Hadj Salah.

Key words:

Origin of the research - Arabic linguistic - Linguistic term.

مقدمة:

إذا ما تأملنا مليا حركية البحث اللغوي العربي منذ فترة النهضة الأدبية، تبيّنت لنا خطوط العرض والطول في جغرافيا المنهج الذي ارتضاه اللغويون العرب في هذه المرحلة لمساءلة الظاهرة اللغوية. فلم يتجاوز هؤلاء في تناولهم المعرفة اللغوية إعادة صياغة القواعد اللغوية والنحوية؛ وقد تمثّلت في أعمال من قبيل تيسير النحو أو محاولة صياغة للأساليب العربية تتماشى والمعطيات الحضارية الجديدة. وبعد فترة زمانية قليلة في مقياس سُلّم الحضارة برزت كتابات لغوية عربية، حاولت إعادة صياغة الفكر اللساني الغربي بلسان عربي مبين، وإيصال المعرفة اللسانية للقارئ العربي مثل كتاب «علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي» سنة 1962م لمحمود السعران. وما فتأت تظهر كتابات لسانية أخرى في المشرق والمغرب تعددت في مرجعياتها وأصولها ومناهجها حتى برزت مقولة أزمة اللسانيات العربية ومصطلح اللسانيات التراثية، والذين أثاروا وكتبوا في هذه الأزمة هم أنفسهم الذين رسمت مؤلفاتهم ملامح اللسانيات العربية.

قبل أن نبدأ التنقيب في حفريات بعض النصوص العربية للوقوف عند آراء أصحابها واستحضارها من منابتها الأصلية حول واقع اللسانيات العربية، نشير إلى طبيعة العربي في علاقته بلغته والتي امتازت منذ بداية التأريخ للغة بتوتر غير طبيعي؛ فهي في الجاهلية لغة السيادة والغزو والشعر وفي الإسلام لغة الدين والدنيا وفي التحضر لغة العلم والفلسفة والسياسة. وحتى عند محاولة مساءلة اللغة عن قوانينها في فترة من فترات تاريخها وقف الأعرابي -بكل أبعاده الرمزية- موقفا سجّله التاريخ كانعطاف بارز في مسار حضارة انطلقت من نص لتصل إلى نصوص، حين صرّح قائلا: ((أراكم تتكلّمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا))[1].

ولمَّا تفتّق الفكر اللساني عند الغرب وظهر دي سوسير بمحضاراته، التفت إليه ثلة من الباحثين العرب لاستيعاب آراءه واستجلاب النظريات اللسانية، «فعَادَتْ لِعِتْرِهَا لَمِيسْ»، ووقف العربي في الطّرف الآخر من اللسانيات موقف الأعرابي من

كلام المتكلمين بكلامه، ولكنّه هذه المرّة محمّل بتراث لغوي ضخم استنفذ من الأمّة قرونا من البحث تصنيفا وشرحا ودراسة، فكان التوصيف لواقع اللسانيات في الثقافة العربية بكل تجذباته الفكرية والمنهجية موردا لكل مَنْ تكفّل من قريب أو من بعيد بالكتابة اللسانية.

نبحث في هذا المقال في واقع اللسانيات العربية في فكر بعض الألسنيين العرب -الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وغيره- من حيث تناول التراث اللغوي العربي وتلقي اللسانيات الغربية وكذا إشكالية المصطلح وواقعه، ثم نعرّج نحو مفهوم التأصيل العلمي عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وكيف تمظهر في اللسانيات العربية.

1. واقع اللسانيات العربية

ثمة اتفاق ضمني بين الألسنيين العرب على أنّ طبيعة العلاقة بين العربي ولغته تمتد بجذورها إلى أبعاد يندر وجودها في لغة أخرى وفي حضارة من الحضارات الإنسانية، كما اتفق هؤلاء على أنّ لأزمة اللسانيات العربية خطوطا تتقاطع فيها الآراء ولا تختلف. ولكي نستجلي واقع اللسانيات العربية في هذا المقام نركز على بحث قد يمثّل أحسن تمثيل لهذا التقاطع بين آراء الألسنيين وهو للدكتور عبد السلام المسدي الموسوم بـ «الفكر العربي والألسنية».

يعالج عبد السلام المسدي معوقات البحث اللساني العربي من منطلق طبيعة الفكر العربي وعلاقته الحضارية باللغة ويقول: ((وفعلا فإنّنا - أبناء العربية -نستجمع إرثا لغويا هو من أغزر ما تخلفه الأحقاب الحضارية لمن بعده، ويكاد يجزم النّاظر بأنّ العرب بين قديمهم وحديثهم قد أتوا كلّيا على لغتهم جمعا وتمحيصا ثم دراسة وتنظيما حتّى عدّت علومهم في اللغة مضرب الاكتمال))[2]. فالعرب وفق هذا المنظور أمة اكتملت عندها المعرفة اللغوية وتمّت، كما أكمل لهم نبيهم عليه الصلاة والسلام يوما دينهم وأتمه.

بالإضافة إلى هذا العائق النفسي الحضاري اتجاه أي بحث لغوي غير عربي،

بـرز عائـق مـن جنـس آخـر تمثّـل في الـصراع بـين تياريـن مختلفـين؛ تيـار ينتـصر إلى الـتراث كل الانتصـار وآخـر يـرى في اللسـانيات الغربيـة أحسـن نمـوذج معـرفي يمكـن أن يطـوّر البحـث اللسـاني العـربي، وقـد تدثّـر الـصراع بمنهجـين مختلفـين وهـما: الوصفيـة والمعياريـة، يقـول: ((فالخطـأ المبـدئي الـذي وقـع فيـه كثـير منّـا متمثّـل في اعتبـار الوصفيـة والمعياريـة شـحنتين متنافرتـين حتـى اعتبرنـا أنّ الألسـني مـن حيـث يلتـزم بالوصفيـة يتحتّـم عليـه الطعـن في المعياريـة))[3].

أمّـا فيـما يخـص طبيعـة اللسـان العـربي وعلاقتـه بالبحـث اللسـاني فقـد أفـرزت الجهـود عـن اتجـاه حـاول تطويـع اللسـان العـربي لاسـتيعاب المفاهيـم اللسـانية وإجراءاتهـا التطبيقيـة مثـل أعـمال الدكتـور «عبـد القـادر الفـاسي الفهـري» في إطـار النحـو التوليـدي وأعـمال «أحمـد المتـوكّل» في إطـار النحـو الوظيفـي، وفي سـياق الحديث عـن مفاهيـم اللسـانيات البنويـة والتوليديـة وعلاقتهـا باللسـان العـربي يقـول الدكتـور مصطفـى غلفـان: ((فإنّنـا لا نـرى مـا يمنـع مـن تطبيقهـا عـلى اللسـان العـربي أو أيّ لسـان آخـر خـارج نطـاق الألسـن الأوروبيـة المعروفـة مثـل الإنجليزيـة والفرنسـية والألمانيـة والإسـبانية))[4]. وفي هذيـن البعديـن أيْ الفكـر العـربي وطبيعـة اللسـان العـربي اختـصرت اللسـانيات أبعادهـا النظريـة والمنهجيـة.

2.1 واقع اللسانيات العربية في نظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إنّ البحـث في الفكـر اللغـوي لعـالم مـن العلـماء يسـتوجب منّـا إضافـة إلى القـراءة المتأنّيـة لـكل أعمالـه الوقـوف عنـد مصـادره العلميـة وسـيرورة تشـكل المعرفـة العلميـة لديـه قبـل الكتابـة وبعدهـا، وإذا اسـتقر عندنـا - كـما هـو الحـال في بحثنـا هـذا - أنّ الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح قـد اطّلـع عـلى الفكـر اللسـاني الغـربي مـن مصـادره وبلغتـه الأصليـة دون عزلـه عـن سـياقاته الفلسـفية والحضاريـة، ودون أن يحـدث فيـه انبهـارا وتبعيـة بـل وعيـا معرفيـا وقـاه في كثـير مـن الأحيـان مـن مزالـق الأحـكام التقريريـة. كـما اطّلـع عـلى الـتراث اللغـوي العـربي انطلاقـا مـن أصولـه ومتتبّعـا لـكل انعطـاف شـهده في سـيرورته الحضاريـة، فـإنّ المـزج بـين المعادلتـين سـيولّد بالـضرورة

العلمية توجها فريدا في البحث اللساني إنْ على المستوى اللسانيات العربية أو اللسانيات العامة.

حاول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ككل أقطاب التفكير اللساني العربي المعاصر رسم ملامح واقع اللسانيات العربية وما تطرحه من تحديات ترتبط أساسا بالتلقي العربي للسانيات الغربية، وما تفرّع عنه من إشكالات تعلّقت بموضوع اللسانيات ومنهجها في دراسة الظاهرة اللغوية، وكذا مرجعية منظومتها المصطلحية.

نلفي في هذا السياق الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح يكتب بحثا وسمه بـ «البحث اللغوي وأصالة الفكر العربي»[5] يعالج فيه معوّقات البحث اللساني العربي وإشكالاته من منطلق طبيعة الفكر العربي ومرجعيات البحث اللساني على السواء.

ويذهب عبد الرحمن الحاج صالح في بحثه هذا إلى أنّ الشرخ الشديد الذي شهده البحث اللساني العربي المعاصر من حيث المنهج والغرض يعود أساسا إلى انقسام الباحثين إلى تيارين مختلفين؛ تيار اتصل بالثقافة الغربية المعاصرة ونهل من معارفها اللغوية، وتيار مواز انعزل انعزالا عن تلك التيارات واستفرد بالتراث؛ مما ولّد نظرتين مختلفتين للتراث اللغوي العربي من جهة وللدرس اللساني العربي المعاصر من جهة ثانية. والأخطر على البحث اللغوي العربي هو الانتصار للتيار الأول دون تمحيص لتيار غربي قد مرّ عليه الزمن ووقع في بنائه تغيّر جذري، وتعصّب التيار الثاني لتركة الخمسة قرون الأخيرة من التراث العربي دون النظر في أصوله، يقول عبد الرحمن الحاج صالح: ((ولكن الخطر كل الخطر هو أن يظهر مذهب في بلد ما فيستحسنه الإنسان العربي -وله الحق في ذلك- ثمّ يبقى متمسّكا به على الصورة التي ظهر بها ويجهل أن هذا المذهب قد يكون تطوّر تطوّرا عميقا، بل نُقض النقض الحاسم أو أُقيم مقامه مذهب آخر يتجاوز تناقضاته الباطنة، وهناك أيضا من بقي متعلّقا بالثقافة المتحجّرة (تركة الخمسة قرون الأخيرة) فأهمل ثقافة العصور الإسلامية الأولى المتلألئة))[6].

ينطلق التوصيف لواقع اللسانيات العربية في هذا المقام من مقولات نحاول إبراز

أبعادها -في فكر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح- والتي تتعلّق أساسا بمصادر الدرس اللساني العربي المعاصر؛ هل يستوجب الرجوع إلى التراث اللغوي أم الإكتفاء بالدرس اللساني الغربي، وكيف يمكن للسانيات أن تستوعب بالموازاة المفاهيم التراثية ومفاهيم اللسانيات العامة دون إحداث شرخ في المنهج والموضوع والإجراء. هل استطاعت اللسانيات العربية أنْ تحقّق أهدافها من بينها استيعاب المنجز الغربي وترقية اللغة العربية في جميع المستويات وإنجاز معجم تاريخي للغة العربية.

ونحن نتحسّس نصوص الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية، حرفا حرفا وكلمة كلمة وجملة جملة، تتّسع تضاريس البحث اللساني بكل أبعاده المعرفية والمنهجية، إذ انطلق الرجل بالتوازي من منطلقين مختلفين -على عادة قلة من الباحثين- وعيًا بالتراث العربي القديم في أصوله من جهة، ووعيًا بالأصول الابستمولوجية للبحث اللساني في الغرب من جهة ثانية، كما استطاع بكل جرأة الباحث المتمرّس أن يقف عند أهم الهنات التي وقع فيها الناظرون في التراث العربي واللسانيات العامة، مستندا إلى مختلف آليات الشرح والحجاج. وقبل التأصيل للبحث اللساني العربي نجده يثور على بعض البديهيات التي استقرت في قاع البحث اللغوي المعاصر سواء من اللغويين العرب أو من المستشرقين مما جعله يستدعي النصوص من مصادرها، ويبني تصورا لنظرية لسانية عربية متكاملة بجهازها المصطلحي ومنهجها الأصيل وإجراءاتها التطبيقية وهي«النظرية الخليلية» ولكنّها لا تكتفي بالتوصيف النظري بل جعل لها امتدادات تطبيقية لترقية اللغة العربية على مستوى تعليميتها وحوسبة المعجم ومشروع الذخيرة وصناعة المصطلح وتحليل الخطاب.

3. أصول البحث العلمي في اللغة في نظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

نسلّم معرفيا أنّ العرب اهتموا بلغتهم كل الاهتمام وأنّ الرجوع إلى تراثنا اللغوي بكل مرجعياته يشكل دون ريب مصدر التأصيل لبحثنا الألسني. يقول المسدي

في هـذا السـياق: ((عـلى أنّ اسـتلهام الـتراث يتنـزّل لـدى العـرب في عصرنـا منزلـة مولـد التأصيـل الفـردي الـذي بدونـه يظـل الفكـر العـربي سـجين الأخـذ محضـورا عليـه العطـاء))[7]، والإشـكال الـذي يفـرض نفسـه في واقـع البحـث هـو كيـف نسـتلهم الـتراث؟ ومـا هـي الآليـات المنهجيـة والمعرفيـة التـي نتوسـل بهـا لاسـتثمار أمثـل لـه.

ينطلـق الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح مـن قناعـات حضاريـة يقـرّ فيهـا بضرورة النّظـر في الـتراث اللغـوي العـربي الأصيـل بعيـدا عـن الأحـكام الجاهـزة التـي اسـتقرت في البحـث اللسـاني المعـاصر، إذ لا يمكـن مقاربـة الجهـود العربيـة في علـوم اللغـة بمرجعيـات الفكـر اللسـاني الحديـث يقـول: ((لا نريـد النظـر فيـما أخرجـه القدامـى وفي أعيننـا نظـارات خاصـة بالعـصر الـذي نعيـش فيـه فنطمـس الرؤيـة القديمـة بالرؤيـة الجديـدة ولـو مـن بعـض الجوانـب))[8]. ويعيـب الرجـل كذلـك عـلى كل باحـث أخـذ المفاهيـم اللسـانية الحديثـة عـلى أنّهـا حقائـق علميـة ثابتـة ومنهـا يحكـم عـلى الـتراث القديـم، إنْ وافقتـه رضي بصحتهـا أوخالفتـه حكـم عليـه بالخطـأ والبدائيـة، يقـول في هـذا السـياق: ((فالمقصـود مـن هـذا ليـس هـو أنْ نأخـذ كلّ مـا يقولـه المحدثـون مـن علماء اللسـانيات وننطلـق منـه كأصـول ثـمّ ننظـر مـا الـذي يوافـق ذلـك فيـما جـاء بـه العلـماء القدامـى مـن أقـوال فنحكـم عـلى بعضهـا بالصحـة لموافقتهـا لهـا وبعضهـا بالخطـأ "بـل البدائيـة" لمخالفتهـا))[9].

ونلفـي كل مـن انقطـع للبحـث في فلسـفة الحضـارة واسـتثمار الـتراث الإنسـاني يقـرّ بهـذا الخلـل المنهجـي في تنـاول الـتراث العـربي وتقويمـه، يقـول الفيلسـوف المغـربي طـه عبـد الرحمـن في كتابـه: «تجديـد المنهـج في تقويـم الـتراث»: ((كـما أنّـه غلـب عـلى نقـاد الـتراث التوسـل بـأدوات البحـث التـي اصطنعهـا المحدثـون مـن مفاهيـم ومناهـج ونظريـات، معتقديـن أنّهـم، بهـذا التقليـد، قـد اسـتوفوا شرئـط النظـر العلمـي الصحيـح.))[10].

ثـم نجـد الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح يتنـاول في بحثـه الموسـوم بـ«الأصالـة والبحـوث اللغويـة الحديثـة» مفهـوم الأصالـة والتـي اعتمدهـا أساسًـا في دراسـته للـتراث

اللغـوي العـربي والجهـود اللسـانية الغربيـة وقـد حـام مفهومهـا عنـده حـول المبـدع الـذي يـأتي بـشيء جديـد لم يسـبقه إليـه أحـد، ويقابلهـا بالمقلّـد سـواء كان التقليـد للقدمـاء أم الغربيـين المحدثـين، يقـول ((فهـذا هـو موقـف العـالم ذي الأصالـة وكنـا -ومـا يـزال الكثـير منّـا- نقلّـد القدامـى مـن علمائنـا ثـمّ جـاء منّـا مـن يقلّـد الآن الغربيـين فاسـتبدلوا بذلـك تقليـدا بتقليـد))[11]. فالمقلّـد وفـق هـذا النّـص مقلّـدان؛ مقلّـد للـتراث ومقلّـد للغـرب وكلاهـما في البحـث العلمـي سـواء، وقـد تفطّـن ثلـة مـن الباحثـين لهـذا التوجّـه الـذي سـاد عنـد البعـض، يقـول عبـد السـلام المسـدي في هـذا السـياق: ((ومـع ذلـك ترانـا أحـد رجلـين فإمّـا ناقـل لفكـر غـربي وإمّـا نـاشر لفكـر عـربي قديـم، فـلا النّقـل في الحالـة الأولى ولا النـشر في الحالـة الثانيـة يصنـع فكـرا عربيـا معـاصرا))[12].

فالباحـث الأصيـل -في نظـر الدكتـور عبـد الرحمـن الحلـج صالـح- يبتعـد عـن التقليـد الأعمـى بـكل صـوره دون تمحيـص أو بحـث دقيـق في المقـولات العلميـة مـن مصادرهـا الأصليـة، ويضيـف قائـلا: ((فهكـذا يتبـيّن أنّ الباحـث الأصيـل هـو الـذي إذا طـرق موضوعـا قصـد منابعـه الأصيلـة وأمعـن النّظـر في مظانـه الأولى أيْ فيـما تركـه المَعْنـي بهـذا الموضـوع نفسـه لا فيـما رواه عنـه غـيره بعـد مـضي خمسـة قـرون))[13]، وقـد لا يحيـل هـذا المذهـب كـما قـد يبـدو للقـارئ الغـض عـلى أنّ الباحـث الأصيـل لابـد أن يـأتي بجديـد لم يسـبقه إليـه أحـد بـل لابـد مـن نظـر علمـي دقيـق فيـما اسـتقر وثبـت، يقـول: ((إلّا أنّ الأصالـة في هـذا الأخـذ تكمـن في عـدم الاطمئنـان مقدّمـا وقبـل النّظـر إلى كلّ مـا يصـدر مـن الغـير حتّـى يقـوم الدّليـل الـذي يحمـل الإنسـان بـل يجـبره عـلى تقبّـل أقـوال غـيره))[14]. وهـذا مـا ذهـب بـه إلى تمحيـص الـتراث اللغـوي العـربي وتصفيتـه مـما علـق بـه مـن الشـوائب ليسـتبين الأصيـل منـه مـن غـير الأصيـل، وفي هـذا السـياق أفـرد الدكتـور بحثـا لسـانيا تنـاول فيـه «تكنولوجيـا اللغـة والـتراث اللغـوي الأصيـل»[15] حـاول مـن خـلال هـذا البحـث الاسـتفادة مـن التطـور التكنولوجـي في تمحيـص مختلـف النظريـات اللسـانية قديمـا وحديثـا، في قولـه: ((أمـا فيـما يخـص النّظريـات الصوتيـة فقـد صـار أيضـا في الإمـكان أن نبرهـن عـلى صحـة مـا قالـه اللغويـون العـرب قديمـا أو عـلى

عـدم صحـة بعـض مـا قالـوه. ومـن ثـم صـار في الإمـكان أيضـا -وهـو أهـم مـن كل هـذا- أن نواصـل العمـل الـذي ابتـدأه هـؤلاء العلـماء وننطلـق في ذلـك مـن الأقـوال الصحيحـة ونتخلّـص هكـذا مـن التقليـد مهـما كان، سـواء تقليـد الغربيـين في كل مـا يقولونـه (ومـا أكـثره في وطننـا العـربي) أم التقليـد الأعمـى لـكل مـا ذهـب إليـه السـابقون مـن علمائنـا، فنحافـظ عـلى أصالـة بحوثنـا))[16].

كـما يمكـن اسـتغلال التطـور التكنولوجـي في تطويـر البحـث العلمـي في اللغـة، وعـلى أساسـه أطلـق مـشروع الذخـيرة اللغويـة العربيـة والرصيـد اللغـوي المغـربي، يقـول: ((هـذا وقـد أنجـز الرصيـد اللغـوي المغـربي بفضـل اسـتعمال القائمـين بإنجـازه للرتّـاب (أو الحاسـب) إذ لا يمكـن أن ترتّـب المفـردات التـي وردت في جميـع النصـوص مـن جميـع البلـدان المشـاركة والترتيبـات المتعـدّدة بسـياقاتها التـي تعـدّ بـالآلاف، ولا أن تحـصى كل واحـدة منهـا إلا باللجـوء إلى الحاسـبات الإلكترونيـة))[17]، فيصبـح -في نظـر الدكتـور- اسـتغلال التطـور التكنولوجـي سـعيا متميّـزا لتمحيـص الـتراث، مـن جهـة وتطويـر البحـث في اللغـة، مـن جهـة ثانيـة.

وقـف في هـذا البحـث عنـد المزالـق المنهجيـة والفكريـة التـي وقـع فيهـا الباحثـون في تناولهـم للـتراث وعـلى أسـاس تشـخيصها ونقدهـا بنـى منهجـه الأصيـل في معالجـة القضايـا التراثيـة:

1. التّبنـي بـدون نظـر سـابق لمـا جاءنـا مـن الغـرب مـن الأقـوال والمذاهـب بدعـوى أنّ هـذه الأقـوال هـي آخـر مـا توصّـل إليـه العلـم الحديـث. ويـؤدي هـذا بالـضرورة إلى التعصّـب لمذهـب غـربي أو لعـالم غـربي.

2. تجاهـل بعـض الباحثـين للـتراث العلمـي العـربي في ميـدان اللغـة وخصوصـا مـا اختـص بـه العـرب دون غيرهـم ومـا أبدعـوه مـن المفاهيـم ولم يوجـد مـا يقابلـه في الـتراث الفكـري اليونـاني اللاتينـي ولا في المذاهـب اللغويـة الغربيـة الحديثـة[18].

وفي ظـل هـذه المواقـف والملاحظـات شـقّ الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح لنفسـه طريقـا يصـل مـن خلالـه إلى وصـف الظاهـرة اللسـانية وصفـا علميـا سـواء تعلّـق

ذلك بالتراث العربي أو المنجز الحضاري الحديث، وقد رمنا التوسل بكل وسائل البتر المشروعة معرفيا من تقليص وتلخيص في تحديد الأصول المنهجية التي اعتمدها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وهي كما يلي:

1. عدم الاكتفاء بما يقوله المتأخّر عن المتقدّم وعدم التهاون بما قاله المعني بالأمر نفسه والاقتصار بما قاله المتأخر. وتقديم النص الأصلي عن الشروح.

2. الاعتماد على الكتب العلمية لا على الكتب الشبه العلمية مثل كتاب الأغاني للأصفهاني.

3. التصفّح الكامل للنّص الواحد أيْ الاطلاع عليه كاملا.

4. الاعتماد في التصفّح على طريقة «المقارنة القياسية الدلالية» ، وهي طريقة مبنية على أسس لغوية منطقية ومن خصائصها:

أ. النظر في المعطيات التي هي في النصوص الأصلية.

ب. الاعتداد الجدّي المستمر بعامل الزمن في تحوّل رؤية العلماء وتصوراتهم ومفاهيمهم.

ج. عدم الاعتماد على المعاجم في تحديد المعاني بل يؤخذ المعنى من النصوص أنفسها وهي طريقة استكشافية للمعنى المقصود في النص. وقد بنيت على مفهوم «الاستغراق وهو عند النحاة قسمة المواقع».

د. الإحصاء في النّص الواحد لكل العبارات أو القطع من الخطاب[19].

وقد وظّف هذه الأصول في تحديد مفهوم الفصاحة في كتاب سيبويه، فبعد المسح الكلي لنص الكتاب حدّد السياقات التي تواتر فيها لفظ الفصاحة بمشتقاتها. وبعد المقارنة القياسية الدلالية حدّد المجال المفهومي للفصاحة يقول عن هذا المنهج: ((ويمكن أن نمثّل لذلك بلفظة «الفصاحة» وما يشتق منها فما هو الغرض من الفصاحة عند سيبويه ومن عاصره إلى عصر الجاحظ؟ نبدأ أولا باستقراء الكتاب ومسحه كما قلنا مسحًا كاملاً حتى نجمع كل السياقات التي وردت فيها هذه المادة بمشتقاتها. فبعد أن يتمّ لنا ذلك يتّضح أنّ «فصحاء العرب»

هـم عنـد سـيبويه «الموثـوق بعربيتهـم» و «الذيـن تـرضى عربيتهـم» فالفصاحـة ههنـا هـي الفصاحـة اللغويـة أي صفـة الإنسـان الـذي لم تتغـيّر لغتـه ويجـوز الأخـذ منـه والاستشـهاد بكلامـه))[20].

أمّـا النتائـج التـي توصّـل إليهـا أجملهـا في قولـه: ((مـن هـذه الأقـوال والتحديـدات اللغويـة نسـتخلص أنّ الوحـدات الدلاليـة لمفهـوم الفصاحـة غـير المصطلـح عليـه عنـد النحـاة والبلاغيـين هـي كالتـالي:

1. طلاقة اللسان وعدم وجود عقدة أو عيّ ومن ثمّ سهولة التعبير.

2. بيـان كلام الفصيـح ووضوحـه وفهـم السـامع لمـا يعنيـه بسـهولة، وهـذا ينطبـق عـلى العربيـة وغيرهـا مـن اللغـات وحتـى عـلى العجـم إذا فصحـوا في لغتهـم أو في العربيـة.

3. حسـن الـكلام وبلاغتـه والفصاحـة هـي بذلـك مرادفـة للبلاغـة في اللغـة العاديـة وقبـل ظهـور علـم البلاغـة.

4. السـلامة مـن اللحـن إذ لا يعقـل أن يوصـف البليـغ باللحـن عـلى مذهـب قومـه سـواء كان ذلـك بالسـليقة أو بالتلقـين))[21].

يتبـيّن لنـا مـن خـلال هـذا النـص أن الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح يفـرّق بـين الفصاحـة السـليقية والفصاحـة الملقّنـة، إذ كانـت الفصاحـة السـليقية المصـدر الأسـاسي في تدويـن اللغـة والحجـة التـي يُحتكـم إليهـا. أمّـا الفصيـح غـير السـليقي غـير مأمـون عليـه الخطـأ لأنّ الفصاحـة عنـده مصدرهـا التلقـين.

ومـا فتـئ يربـط الدكتـور الظواهـر اللغويـة التـي يعالجهـا في الفكـر العـربي القديـم بما يماثلهـا مـن مفاهيـم في اللسـانيات الغربيـة المعـاصرة يقـول ((فمقيـاس الفصاحـة -بهـذا المعنـى- هـو مقيـاس علمـي دقيـق يعمـل بـه العلـماء في زماننـا في البحـوث الميدانيـة وفي علـم تعليـم اللغـات ويقابلـه بالتقريـب في الإنجليزيـة عنـد علـماء اللسـان، مـا يسـمى عندهـم الآن بـــ (Natif Speaker)[22] أي الناطـق بلغـة منشـإه.

هـذه هـي الأصـول التـي صاغهـا الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح لتنـاول الظاهـرة

اللسانية في التراث العربي، ثم انتقل إلى حيّز آخر في بحثه هذا وسمه بـ «التمحيص للنظريات اللسانية» وهو ضرب من التأصيل انتهجه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح لمساءلة الظاهرة اللغوية في اللسانيات الغربية، واكتفى بمثال واحد وهو حقيقة المعيار اللغوي وماهيته، ويقر بداية أنَّ اختيار معيار لغوي وتفضيله عن غيره من المعايير في اللغة الواحدة منوط أساسا بالشعوب وإليها يعود القرار، وليس للساني الموضوعي الحق في اختيار المعيار وتفضيله عن غيره. أمّا التناول الموضوعي للظاهرة اللسانية يكون للوصف من جهة واستنباط الحدود من جهة ثانية، فإنّ الخلط بين التناولين يؤدي بالضرورة إلى الخروج عن حدود الآداء العلمي. وفرّق الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بين وصف الظاهرة ووصف الأعمال؛ فوصف الظاهرة هو وصف لها كما هي في الواقع أمّا وصف الأعمال فهو التحديد والترتيب الدقيق لكل العمليات اللازمة للوصول إلى نتيجة معيّنة، يقول: ((وذلك لأن الوصف للظواهر ولاسيما بالطريقة المعهودة عند اللغويين الوصفيين ليست الجانب الوحيد الذي يتّصف به التحصيل للعلم. إذ للعلم جانب آخر لا يقل أهمية وهو الوصف للأعمال لا للظواهر أيْ التحديد والترتيب الدقيق لكل العمليات اللازمة للوصول إلى نتيجة معيّنة وذلك مثل المنطق الصوري والحساب والجبر))[23].

وقد تجلى جهده الإجرائي في المفارقة بين وصف الظاهرة ووصف الأعمال في تناوله للسماع العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة؛ فوصف الظواهر كما دأب عليها الوصفيون -اللسانيات الوصفية- ((تبدو اللسانيات الوصفية بهذا المعنى علما اختباريا بامتياز، باعتبار الوصف اللساني ممارسة قائمة أساسا على المعاينة والملاحظة. والظواهر اللغوية التي تتمّ ملاحظتها هي مجموع الملفوظات والجمل التي ينتجها مستعملو لسان معيّن))[24].

4.1 المصطلح اللساني:

أثار المصطلح اللساني كمثله من المصطلحات العلمية الأخرى في العصر الحديث جدلا واسعا امتد إلى شروط وضعه وترجمته وتعريبه، وتعزّز هذا الجدل أكثر

عندما اتسعت المسافة الحضارية والعلمية بين العرب والأمم الأخرى، مما ولّد اتجاهات متعدّدة ومختلفة في إنتاج المصطلح وتتمثل في:

1. التعصب للغة العربية ورفض كل دخيل. ويدعو هذا التيار إلى إعادة إحياء التسميات التراثية بما فيها التسميات الجاهلية.

2. لا ينكر جمالية اللغة العربية ولكنّه يصرّ على القول بأنّها لا تفي باحتياجات العصر العلمية.

3. موقف اعتدال: لا إفراط ولاتفريط ويرى أنّ اللغة لو أتيحت لها الفرصة لاستجابت لمعطيات العصر[25].

وفي هذا الفلك يسبح المصطلح اللساني ضمن المقولات التصنيفية السالفة الذكر، وتنطرح أمام البحث إشكالات متعدّدة منها؛ هل نكتفي في البحث اللساني العربي استحضار المصطلح التراثي القديم وإسقاطه على المفاهيم الحديثة؟ أو تعريب المصطلح الغربي وفق ما تقتضيه آليات اللسان العربي، أو تعريبه صوتيا ليحافظ - حسب بعضهم - على روحه الحضارية التي استُجْلِب منها.

1.4 إشكالية المصطلح في اللسانيات العربية

بدأت بوادر إشكالية المصطلح اللساني في الثقافة العربية المعاصرة عندما بادر ثلة من الباحثين في العالم العربي بترجمة كتاب دي سوسير وقبلها ترجمة فصول منه، وبدا الاختلاف جوهريا في ترجمة عنوان الكتاب، فإذا لم يسلم العنوان من الاختلاف فكيف يكون حال متن الكتاب؟

وظهر الكتاب بالعناوين التالية: «دروس في الألسنية العامة»، ترجمة محمد عجينة ومحمّد الشاوش ومراجعة صالح القرمادي. «محاضرات في علم اللّسان العام»، ترجمة عبد القادر قنيني. «فصول في علم اللغة» ترجمة نعيم الكراعين. محاضرات في الألسنية العامة»، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر. «علم اللغة العام»، ترجمة يوئيل يوسف عزيز.

وجوهر الإشكال القائم بين هذه الترجمات أنّ بعضها مترجم من لغته الأصلية

الفرنسية وهي ترتبط أصلا بدول المغرب العربي ولبنان، وبعضها الآخر مترجم من اللغة الإنجليزية أي ترجمة عن ترجمة وهو حال العراق ومصر.

هذا وجه من وجوه إشكالية المعادلة الاصطلاحية اللسانية العربية. أمّا بالنسبة لأَعْلَام البحث اللساني العربي، فقد اتخذ كل منهم منهجا مخالفا عن نظرائه في صناعة المصطلح اللساني سواء باستحضار وإحياء المصطلح التراثي أو الاجتهاد في صياغة مصطلح جديد يتناسب والمفاهيم التي تداولتها اللسانيات الغربية، ونقف في هذا المقام عند تجربة الدكتور «أحمد المتوكل» في استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة، في ضوء اشتغاله واهتمامه باللسانيات الوظيفية، وقد أفرد لهذا الموضوع أي استثمار المصطلح التراثي بحثا -نراه متميّزا وجادا- كشف فيه عن منهجه في توظيف المصطلح التراثي والمعوّقات المعرفية والحضارية التي واجهته في الممارسة الإجرائية.

يشير الدكتور أحمد المتوكّل قبل استثمار المصطلح التراثي وتوظيفه في البحث اللساني الحديث إلى علاقته بالتراث اللغوي العربي، يقول: ((كانت علاقتي بالنتاج اللغوي العربي القديم علاقتين:

أ. علاقة العارض المقوّم المقارِن.

ب. علاقة المقترض: وكان ذلك في مرحلتين اثنتين: اهتممت في المرحلة الأولى باستشفاف النظرية الثاوية خلف ما ورد في التراث -نحوا وبلاغة وأصولا ومنطقا وتفسيرا وفقه لغة- في باب الدلالة بأنماطها))[26].

بعد اطلاعه على التراث اللغوي العربي واستيعابه لمفاهيمه وفق السياقات الحضارية التي أثّثت التفكير اللغوي عند العرب، حاول أن يقاربه بالنظريات اللسانية الحديثة وفق الأبواب والمباحث والموضوعات، يقول: ((فقد مددت بين الفكر اللغوي العربي القديم وأحد النماذج اللغوية الوظيفية الحديثة؛ نموذج «النحو الوظيفي» جسرا مكّنني، وأنا بصدد معالجة قضايا تداولية في اللغة العربية، أن أستعير من مؤلفات اللغويين القدماء ما مسّت إليه الحاجة وما رأيته واردا

مناسـبا))[27].

في هـذا السـياق يعـرض الدكتـور أحمـد المتـوكّل بعـض النـماذج التطبيقيـة أثنـاء ممارسـة فعـل معاينـة المصطلـح الـتراثي والبحـث عـن البديـل الـذي يسـتوفي مفهومـه شرط الدّقـة والضبـط، يقـول: ((مثـال ذلـك مـا ارتأيـت فعلـه حـين اسـتعرت مصطلـح «محـور» «Topic» للدلالـة عـلى الوظيفـة التداوليـة التـي يأخذهـا المكـوّن المتوسّـط بـين الفعـل والفاعـل في التركيـب الممثـل لهـا بالجملـة (1) أعـلاه مسـتبدلا إيـاه بعبـارة «العنايـة والاهتـمام» الـواردة في تحليـل الجرجـاني لهـذا الـضرب مـن التراكيـب والتـي بـدت لي مـن العمـوم مـا يجعلهـا غـير كفيلـة بتأديـة مـا يؤديـه المصطلـح الحديـث))[28].

ولتوظيـف المصطلـح الـتراثي للمفاهيـم اللسـانية الحديثـة دور بـارز في مدّ الجسـور بين الفكـر اللغـوي العـربي القديـم ونتـاج اللسـانيات العربيـة المعـاصرة كـما يسـهّل تمريـر الخطـاب اللسـاني العـربي لطلبـة الجامعـات والمعاهـد اللغويـة؛ مثـل الفاعـل والمفعـول وغيرهـما.

هـذا عـرض موجـز لتجربـة باحـث لسـاني يعمـل عـلى ترويـض النظريـة اللسـانية الغربيـة وتطبيقهـا عـلى اللسـان العـربي بحضـور وعـي منهجـي وإدراك للأبعـاد الإبسـتمولوجية والأنطولوجيـة للبحـث اللسـاني الغـربي والعـربي عـلى السـواء.

2.4 تأصيل المصطلح اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إن المتأمـل في مـشروع الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح اللسـاني يجـده يمتـد بـكل أبعـاده في أصـول التفكـير العـربي، ومـا اختـص بـه العـرب عـن غيرهـم في تنـاول الظاهـرة اللسـانية، وذلـك بعـد اطلاعـه عـلى جهـود مختلـف الحضـارات في تبـيّن ملامـح الظاهـرة اللغويـة. لقـد اسـتقرّ عنـده أن الـتراث العـربي تراثـان؛ تـراث أصيـل انطلـق مـن منطـق عـربي خالـص، وتـراث انحـرف عـن مسـاره الـذي رسـمه النحـاة الأوائـل فتمثّلـوا الفكـر الأرسـطي ومنطقـه في فهـم الظاهـرة اللسـانية.

أحـدث هـذا الانعطـاف المعـرفي في الـتراث العـربي القديـم شرخـا في فهـم المتأخريـن للمصطلـح الأصيـل الـذي تداولـه النحـاة الأوائـل، مـما جعلـه يبحـث في المنابـت الأولى

للمصطلح اللغوي وتتبع مختلف التحوّلات التي طرأت على مجاله المفهومي.

انطلق الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في تأصيله للمصطلح اللساني العربي من قناعات معرفية تتمثل في حركية المفاهيم اللسانية وتجاوزها للحدود الحضارية والزمنية؛ فمنها ما ورثته الحضارة الغربية من الحضارة اللاتينية أو اليونانية أو أبدعته هي بذاتها أو تداول مكافئه المفهومي في الحضارة العربية الإسلامية.

نلقي الضوء في هذا الحيّز المعرفي على منظومة مصطلحية سيّجت البحث اللغوي في التراث الإنساني تناولها الدكتور في بحثه الموسوم بـ «الفوارق القائمة بين فقه اللغة وعلم اللغة وعلم اللسان قديما وحديثا» نستقري من عنوان البحث أن الدكتور يستحضر معادلا اشتقاقيا «للفروق» - الفوارق- الذي يحمل ثقلا دلاليا تراثيا ظهر في المنجزات اللغوية التراثية مثل "الفروق اللغوية" لأبي هلال العسكري وبعض كتب فقه اللغة.

هَنْدَسَ بحثه وفق ضوابط علمية تضمر علنا التجاذب الحضاري في تناول الظاهرة اللغوية، فوظّف التعابير التالية: ((إن فقه اللغة عند القدامى من علماء العرب)) و((فقه اللغة في عصرنا وعند علماء الغرب)) و((عند غيرنا من معاصرينا)) و((علم اللسان قديما وحديثا)) و((علم اللغة قديما وحديثا عندنا وعند غيرنا)) تحيل هذه الصيغ منهجيا إلى المسح الكلي لهذه المصطلحات اللسانية وفق بيئاتها الحضارية.

المصطلح	فقه اللغة	علم اللغة	علم اللسان
عند القدماء من علماء العرب	موضوعه الفوارق اللغوية التي تنتج عن التفريع الدلالي وتشعبات المعاني.	علم أوضاع المفردات أو علم الموضوعات اللغوية، يعالج مفردات اللسان من حيث ثبوت صيغها ومعانيها	دراسة خاصة باللسان تمييزا لها بما هو خارج عنها من أصول الفقه وعلم الكلام وعلم الحديث وعلم المنطق وعلم الحساب والفقه التفريعي وغيرها من فنون المعرفة. العربية أو علم العربية.

في عصرنا (نحن العرب)	نحافظ على المفهوم العربي القديم.	نفس المفهوم الذي عدّه علماء العرب. lexicologie	ترجمنا لفظ linguistique موضوعه اللسان البشري بوجه عام (مفهوم سوسير)
عند الغرب في عصرنا	الحفاظ على المفهوم الغربي القديم	يقابلها Philologie	.....
عند القدماء من علماء الغرب (اليونان- اللاتينية)	الدراسة اللغوية للنصوص القديمة لإدراك فحواها ومغزاها.	.....	.....

إنّ قراءة عمودية لهذا الجدول كما جاء به عبد الرحمن الحاج صالح تحيل إلى الفوارق المفهومية للمصطلح الواحد انطلاقا من الحضارة العربية القديمة وكيف تناولها العرب المحدثون من حيث بقاؤها على الدلالة نفسها أو بعض الإضافات التي أملاها التأثر بالحضارة الغربية. وهذا ما قد يساعد الباحث الغض على فهم حركية المصطلح بين القديم -سواء عندنا أو عند غيرنا- وبين الحديث عندنا وعند غيرنا.

ومن المصطلحات التي كثر تداولها في الكتابات اللسانية العربية وكان لها الأثر البارز في توجيه الفكر اللساني الغربي «اللغة واللسان والكلام» التي استوقفت دي سوسير كثيرا وعلى أساسها تفرعت اللسانيات إلى مدارس ونظريات.

وإنّ نظرة عجلى في المدوّنات اللسانية الحديثة على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها تبيّن لنا منهج التناول لهذه المصطلحات المفاتيح في اللسانيات العربية وكيف صيغ معادلها الترجمي، ونقف في هذا المقام عند أبرز الكتابات اللسانية؛ التي مثّلت المحاولات الأولى لفهم لسانيات سوسير وهو ترجمة لفصول من دروس في علم اللغة العام لفرديناند دي سوسير لعبد الرحمن أيوب (1857 - 1913). انطلق عبد الرحمن أيوب في تناول مصطلح اللغة والكلام من معادلة طرحها سوسير والمتمثّلة في مكانة اللسان من ظواهر اللغة؛ إذ حاول تبيّن دائرة الكلام من حيث منطلقها وعناصرها ومنتهاها ليميز العناصر الفارقة بين اللغة والكلام سواء أكانت ذهنية نفسية أو فيزيولوجية أو فيزيائية، يقول: ((إنّما اللغة كنز وضعه تداول «الكلام» في الناطقين

الذيـن ينتسـبون لمجموعـة اجتماعيـة واحـدة وهـي نظـام نحـوي يوجـد ضمنيـا في كل دمـاغ أو بتعبـير أصـح في أدمغـة مجموعـة مـن الأفـراد لأنّ اللغـة لا توجـد في صـورة مكتملـة عنـد الفـرد الواحـد بـل في الجماعـة بأجمعهـا))[30]. يقـرر النـص ضمنـا -كـما اسـتقر في البحـث اللسـاني العـربي- أنّ التفريـق بـين اللغـة والـكلام هـو في ذاتـه تفريـق بـين مـا هـو اجتماعـي ومـا هـو فـردي.

لم يكتـف الدكتـور عبـد الرحمـن الحـاج صالـح بمـا تـداول في الكتابـات اللسـانية العربيـة التـي كانـت تهـدف في جوهرهـا إلى تقديـم اللسـانيات للقـارئ العـربي وفـق منهـج تعليمـي خلـص، بـل توسـل بأصـول نقديـة حـاول مـن خلالهـا تقديـم اللسـانيات للباحـث العـربي، فجمـع إذ ذاك بـين التيسـير والنقـد المنهجـي.

اسـتعان الرجـل بمقاربـة المفاهيـم بحسـب سـياقها الحضاري-كغـيره مـن الباحثـين- منهجـا لفهـم المصطلـح اللسـاني، ويتجـلى ذلـك في تناولـه لمصطلـح الوضـع والاسـتعمال في التفكـير النحـوي العـربي الأصيـل مقابـل مصطلـح اللغـة والـكلام عنـد دي سوسـير ، مـع وعيـه العميـق بالمفارقـة المنهجيـة بـين التنـاول اللسـاني للظاهـرة اللغويـة وتنـاول النحـاة العـرب القدامـى لهـا وذلـك مـن خـلال بحثـه الموسـوم بـ : «الوضـع والاسـتعمال عنـد العـرب اللغـة والـكلام عنـد سوسـور وغـيره». يقـول: ((التقابـل الـذي يقيمـه دي سوسـور وأتباعـه بـين اللغـة والـكلام هـو مكافـئ تمامـا لمـا أقامـه النحـاة العـرب بـين الوضـع والاسـتعمال وهـذا هـو سـبب تعرضنـا لـه عـلى الرغـم مـن الاختـلاف الجـذري القائـم بـين التحليـل السوسـوري للغـة وعـدم اهتمامـه بالـكلام وبـين التحليـل العـربي لهـا واهتمامهـم الكبـير بالـكلام))[31]، يمكـن للوهلـة الأولى أن نلمـح دون أن ندقّـق النّظـر أنّ سوسـير يجعـل اللغـة مقابـل الـكلام كـما جعلـت العـرب قديمـا الوضـع مقابل الاسـتعمال. فالوضـع يشـبه إلى حـدّ بعيـد اللغـة كـما يشـبه الـكلام إلى حـدّ أبعـد الاسـتعمال، وفي إطـار هـذه المعادلـة حـاول عبـد الرحمـن الحـاج صالـح تأصيـل المصطلـح العـربي؛ فبعـد تتبـع مصطلـح الوضـع وتنوعاتـه الاشـتقاقية مثـل وضـع اللغـة وأصـل الوضـع والمواضعـة فإنّهـا تحيـل إلى: ((رأينـا سـابقا أنّ الوضـع هـو كيـان مجـرد لأنّـه يكـوّن نظامـا مـن الأدلـة

الصوتية المتواضع عليها))[32]. وهذا ما يقارب ضمنيا مصطلح اللغة عند دي سوسير، يقول عبد الرحمن الحاج صالح مترجما لنص سوسير حول مفهوم اللغة ما نصّه: ((... إنّ اللغة نظام تكون فيه جميع عناصره متضامنة «أي متوقّفة، بعضها على بعض في الوجود» حيث تكون قيمة الواحد منها نتيجة عن تواجد العناصر الأخرى في نفس الوقت))[33].

إنّ أيّ مقاربة للنّصين تحيل إلى تكافئ مفهومي بين الوضع ككيان مجرّد واللغة كمجموعة من العناصر المجرّدة ولكل عنصر قيمة في حدّ ذاته؛ وكلاهما نظام من الأدلة (العناصر).

أمّا بالنسبة للطرف الثاني من المعادلة وهو الكلام أو الاستعمال في التراث العربي، فهو: ((حدثٌ والأحداث هي أشياء جزئية لأنّها تدرك بحاسة السمع كأصوات فكل حدث خصوصية. أمّا اللغة فهي من الكليات لأنها غير مدركة بالسمع كوضع كما أنها ليست حدثا بل هي أداة مهيّأة للاستعمال في كل الأوقات والظروف))[34]. أمّا الكلام عند سوسير فيتجلى في قوله: ((فالإنجاز أو التحقق هو دائما فردي ويكون الفرد هو دائما المتكفّل بهذا الإنجاز ونسمي هذا الأخير بالكلام))[35] Parole. فالكلام هو الإنجاز الفردي للغة.

ولقد أشار الدكتور محمد محمد يونس علي في بعض كتاباته إلى معادلة الوضع والاستعمال مقابل اللغة والكلام عند دي سوسير، يطرح مقاربته من خلاله نصه: ((وثمّة صلة بين التمييز بين اللغة، والكلام من جهة، والتفريق بين المعنى والقصد من جهة أخرى، وهي صلة لم يشر إليها دي سوسور صراحة، ولكنّها ترسّخت في الدراسات البراغماتية الحديثة التي استفادت من تمييز دي سوسور بين اللغة والكلام))[36].

فمعادلة اللغة/ كلام وفق المنظور اللساني الغربي الحديث هي نفسها معادلة الوضع والاستعمال في البحث اللغوي العربي القديم.

خاتمة

إنّ المطّلع على حيثيات البحث اللساني عند عبد الرحمن الحاج صالح يقف عند محطّات علمية ومنهجية رسم من خلالها الرّجل ملامح مشروع لساني متكامل؛ بدأ بفكرة تأصيل البحث اللساني التي اعتبرها الحجر الأساس لبناء لسانيات عربية أصيلة في مبادئها ومناهجها، تأخذ من التراث كل أصيل ثبتت لنا بالدليل أصالته وتبعد كل هجين تبيّن لنا بالحجج عدم صفائه. فاستطاع بهذا الفكر التأصيلي أن يقوّم التراث من جهة والنظريات اللسانية الحديثة من جهة ثانية، كما صاغ تصورا لنظرية لسانية عربية هي النظرية الخليلية، وعلى أساسها يمكن إنجاز مشروع الذخيرة وحوسبة اللغة العربية.

الإحـــالات

1- أبـو حيّـان التوحيـدي، الإمتـاع والمؤانسـة، تـح: أحمـد أمـين وأحمـد الزيـن، دار مكتبـة الحيـاة، بـيروت، ج: 2، ص: 139.

2- عبـد السـلام المسـدي، «الفكـر العـربي والألسـنية»، مجلـة الأقـلام، العـدد:04، 1أبريـل 1979م، ص: 3.

3- عبد السلام المسدي، نفسه، ص: 5.

4- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية -أسئلة المنهج- دار ورد الأردنية، ط: 1، 2013، ص: 429.

5- بحـث نـشر في مجلـة الثقافـة الصـادرة عـن وزارة الإعـلام والثقافـة بالجزائـر، السـنة الخامسـة، العـدد: 26 ربيـع الأول -الثـاني 1395هـ أفريـل- مـاي 1975.

6- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 123.

7- عبد السلام المسدي، نفسه، ص: 7.

8- عبـد الرحمـن الحـاج صالـح، السّـماع اللغـوي العلمـي عنـد العـرب ومفهـوم الفصاحـة، موفـم للنـشر، 2007،ص: 8.

9- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 8.

10- عبـد الرحمـن طـه، تجديـد المنهـج في تقويـم الـتراث، المركـز الثقـافي العـربي، المغـرب، ط: 4، 2012م، ص: 10.

11- عبـد الرحمـن الحـاج صالـح، بحـوث ودراسـات في اللسـانيات العربيـة، ج: 01، موفـم للنـشر، الجزائـر 2012، ص: 12.

12- عبد السلام المسدي، نفسه، ص: 7.

13- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 117.

14- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 12.

15- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 265.

16- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 266 .

17- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 279.

18- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 14

19- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 11 - 17.

20- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 18.

21- عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص: 57.

22- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 62

23- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، ص: 21.

24- مصطفى غلفان، اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط: 1، 2013، ص: 101.

25- عبد السلام بن ميس، «التعامل مع المصطلح التراثي بين المنهجية والاعتباط»، مجلة المناظرة السنة الربعة، العدد 6، دجنبر 1993، ص: 67.

26- أحمد المتوكل، «استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة: اللسانيات الوظيفية نوذجا»، مجلة المناظرة، العدد: 6، دجنبر 1993، ص: 49.

27- أحمد المتوكل، نفسه، ص: 50.

28- أحمد المتوكل، نفسه، ص: 50.

29- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص 22-26.

30- عبد الرحمن أيوب، فصول من دروس في علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير (1857-1913). ضمن كتاب، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، ط: 1، 2014، دار التنوير للطباعة والنشر.

31- عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2012، ص: 201.

32- عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع نفسه، ص: 111.

33- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه،ص: 201.

34- عبد الرحمن الحاج صالح، نفسه، 43.

35- دي سوسير فرديناند، محاضرات في علم اللسان، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 2016، ط: 3، ص: 28.

36- محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ط: 1، 2004، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص: 54.

قائمة المصادر والمراجع

- أبـو حيّـان التوحيـدي، الإمتـاع والمؤانسـة، تـح: أحمـد أمـين وأحمـد الزيـن، دار مكتبـة الحيـاة، بـيروت.
- الحـاج صالـح عبـد الرحمــن، الخطـاب والتخاطـب في نظريــة الوضــع والاســتعمال العربيــة، المؤسســة الوطنيــة للفنــون المطبعيــة، 2012م.

ـــــ السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، 2007م.

ـــــ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج:1موفم للنشر، الجزائر، 2012م.

- دي سوسـير فرديناـد، محـاضرات في علـم اللسـان، تـر: عبـد القـادر قنينـي، ط: 3، إفريقيـا الـشرق، 2016م.
- عبـد الرحمـن أيـوب، فصـول مـن دروس في علـم اللغـة العـام، فرديناـد دي سوسـير (1857-1913)، ضمـن كتـاب أنظمـة العلامـات في اللغـة والأدب والثقافـة، سـيزا قاسـم، نـصر حامـد أبـو زيـد، ط: 1، دار التنويـر للطباعـة والنـشر، 2014م.
- عبـد الرحمـن طـه، تجديـد المنهـج في تقويـم الـتراث، ط:4، المركـز الثقـافي العـربي، المغـرب، 2012م.
- محمـد محمـد يونـس عـلي، مدخـل إلى اللسـانيات، ط: 1، دار الكتـاب الجديـد المتّحدة، 2004م.
- مصطفـى غلفـان، اللسـانيات البنويـة منهجيـات واتجاهـات، ط: 1، دار الكتـاب الجديـد المتّحدة، 2013م.
- اللسانيات العربية -أسئلة المنهج-، ط: 1، دار ورد الأردنية، 2013م.

الدوريات:

- مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، العدد: 4، 01 أبريل 1979م.
- مجلـة المناظـرة، مجلـة فصليـة تعنـى بالمفاهيـم والمناهـج، المغـرب، العـدد: 6، دجنـبر، 1993م.